المشروع الثّقافي في توجّهات التيّار الاندماجي للحركة الوطنية الجزائرية (1919-1954).

The cultural project in the orientation of the integration current of the National Movement (1919-1954)

يوسف قنفود.

-جامعة الجيلالي بونعامة؛ خميس مليانة (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *Youcefg2022@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 2023/12/21؛ تاريخ القبول:2024/05/26؛ تاريخ النشر:2024/06/15.

الملخص:

عكست توجّهات الاتّجاه الاندماجي للحركة الوطنية الجزائرية ومطالبه حول مشروعهم الثّقافي عمق الشّرخ الذّي أحدثه الاستعمار الفرنسي في الثّقافة الوطنية بمفهومها الواسع؛ فكان من الاندماجيين متطرّفون رفضوا مكوّنات الشّخصية الجزائرية وانسلخوا عنها، وكان منهم معتدلون هم المعروفون بحزب فرحات عبّاس بقوا متمسّكين بمظهر الحياة الفرنسية، وأبدوا بعض الاهتمام بقضايا الهويّة؛ فلم ينكروا الدّين الإسلامي، وآمنوا بأنّ نهضة الجزائر سوف تولد من المدرسة، وإن كانت محاولاتهم محتشمة بخصوص قضايا اللّغة العربية وتعميم التّعليم على الجزائريين، حاولوا من خلالها التّغلغل في المجتمع الجزائري بعد أن وجدوا أنفسهم بعيدين عنه، لأنّهم آمنوا بالموروث

الثّقافي الفرنسي، كما أنّهم من خلال بعض مؤلّفاتهم قدّموا مشروعاتهم واقتراحاتهم لتحقيق الحداثة المنشودة في الثّقافة الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: التيّار الاندماجي؛ المشروع؛ الثّقافية؛ المطالب؛ الوطنية.

Abstract:

The lines of thought in the cultural project of the integration current of the National Movement reflected a cultural divide caused by the French. Some integrationists were more radical and refused all aspects of the Algerian Identity. Some others were moderate, they sided with Ferhat Abbas' party. Their approach was to combine a French style of life with Algerian Identity issues. They believed that revival starts from school. Even though, their contributions in supporting Arabic language and universal education were modest. That interest in native culture was only among many attempts in vain to infiltrate in society. However, they shared their vision of cultural life in Algeria.

Keywords: Integration current; The project; Cultural; Demands; National

مقدمة:

عرفت تيّارات الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثّانية ديناميكيّة جديدة في النّضال، برزت من خلالها بعض المشروعات الثّقافية التّي نادت بها ضمن برامجها ومطالبها المطروحة، إلى جانب ما كُتب من مقالات في الجرائد الوطنية، وما أُلقي من خطابات، أو ما كُتب من جانب شخصي، وكان حجم الاهتمام بالمشروع الثّقافي بالنّسبة للتيّارات الوطنية متراوحًا بين التمسّك بالثّوابت الوطنية والثّقافة الجزائرية، وبين التّشتّت والضّياع في الانتماء الثّقافي، فما طبيعة

الخطاب الثقافي الذّي تناولته برامج التيّار الاندماجي في الحركة الوطنية الجزائرية؟ وما هي أبعاده وتأثيراته على القضية الوطنية؟

1- لمحة عامّة عن تطوّر مطالب الاندماجيين:

كان التيّار الاندماجي للحركة الوطنية الجزائرية أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع الجزائري، فكانت مطالبهم مستوحاة من غرورهم بشعارات الثّورة الفرنسية (الحريّة، المساواة، والإخاء)، فهي على العموم مطالب إصلاحية تستبعد فكرة الاستقلال، ورأوا أنّ المساواة في الحقوق السياسية بإمكانها أن تقضي على جميع المشاكل، وبقي برنامجهم كلّه يدور في فلك القانون الفرنسي والتّعليم الفرنسي والحضارة الأوربية، ولم يُشر إلى التّعليم العربي لأنّهم رضوا بالثّقافة الفرنسية والحضارة الأوروبية(مناصرية، 1988، ص: 15).

تألّف هذا التيّار من اتّجاهات مختلفة: متحمّسون للفكر الاندماجي، لائكيون، ومعتدلون، الاتّجاهان الأوّل والثّاني بالغوا في أفكارهم الاندماجية واكتفوا بالتّعبير الفردي عن فكرهم الإدماجي، وكانوا مجبرين على ذلك بحكم وظائفهم الحكومية، وكانت الإدارة الفرنسية تتحكّم فيهم وفي طروحاتهم، وهناك الاتّجاه الإدماجي المعتدل (التّعاوني) الذّي يتّفق مع الاتّجاهين السّابقين في مسألة الإدماج، ويختلف معهما في قضيّة الدّين الإسلامي؛ حيث أنّه يطالب بالتّمسّك بالأحوال الشّخصيّة، وعُرف باعتدال مطالبه في برامجه التّي ركّزت على مطلب المساواة مع الكولون في الحقوق السّياسية، كما طالبوا فرنسا بمساعدتهم على الإدماج(Claude Collot, 1981, p. 41).

أحسن من عبّر عن هذا الاتّجاه المعتدل هو فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين التّي ظهرت على أنقاض حركة الأمير خالد

الهاشمي، تشكّلت من شخصيات جزائرية مثقّفة باللّغة الفرنسية، أعلنت عن مطالبها في نهاية أوّل اجتماع لها في سبتمبر 1927م بالجزائر العاصمة(Claude Collot, 1981, pp. 41-42)، واختلف هذا التّجاه المعتدل عن سابقيه لكون أعضائه تكتّلوا في حزب سياسي لتبليغ أفكارهم حول الإدماج هو فيدرالية المنتخبين المسلمين، كما أنّهم كانوا واقعيين نوعا ما بالرّغم من ميولاتهم الفرنكوفونية، وهو ما مكّنهم من مواكبة مرحلة الحركة الوطنيّة ثمّ الثّورة التّحريرية، وقد استطاع بعضهم البروز وشغل مناصب سياسية في الحكومة المؤقتة، كفرحات عبّاس وأحمد بومنجل وعبد الرحمان فارس وغيرهم.

ويعتقد شارل أندري جوليان أنّ أولئك النّخبة كانوا من آفاق فكرية متنوعة، فمنهم من كانوا أتباع الإيجابية، ومنهم من كانوا لا يقرّون إلّا بما يقبله العقل مثل الدكتور بن جلول، ومنهم من كان يحدوه حماس حائر كفرحات عبّاس، ومنهم من كانوا ملحدين ماسونيين مثل الدكتور لخذاري، ومنهم من كان يستهويه الحماس الثّوري مثل أحمد بومنجل، ومنهم من كانوا لا يكترثون للعقيدة الإسلامية وعقيدتهم اشتراكية كإسماعيل حامت(جوليان، 1976، ص: 150).

مع نهاية العشرينات، فقد هذا التيّار بريقه وقيمته عند الأهالي؛ بعد أن فشل في تحقيق برنامجه المعتدل في التّعليم والتّجنيس والتّمثيل النّيابي في المجلس الفرنسي، وبعد أن ظهر كلّ من نجم شمال إفريقيا وجمعية العلماء على رأس الاتّجاه الوطني التحرّري والإصلاحي الثّقافي.

يرى المؤرّخ والكاتب الجزائري عبد الله حمّادي الإدريسي أنّ هذا الاتّجاه الاندماجي بقي ممزّقًا بين الوطنية المكتسبة من الثّقافة الفرنسية وبين المواطنة الرّوحية المكتسبة من الإرث الحضاري العربي

الإسلامي(حمادي، د.ت، ص: 91)، كونهم اندماجيون أبدوا تمسّكهم بالهويّة العربية الإسلامية ممثّلة في الحضارة العربية الإسلاميّة في إطار تعاوني تشاركي مع فرنسا، ولم يتمكّنوا من التخلّص من تلك العلاقة الثّقافية والسّياسية التّي ارتبطوا بها مع فرنسا منذ تكوينهم ونشأتهم في أحضان المدرسة الفرنسية.

منذ سنة 1943م، ظهر اتّجاهٌ راديكاليٌّ داخل هذا التيّار عن طريق بيان 10 فيفري 1943م الذّي حرّره فرحات عبّاس، وهو الاتّجاه الذّي تخلّى عن فكرة الاندماج ونادى بالاستقلال تحت الوصاية الفرنسية، وقد انبثق عن هذا الاتّجاه حزب "الاتّحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" (U.D.M.A) سنة 1946م.

2- اللّغة العربية في برامج وصحافة الاتّجاه الاندماجي:

عرفت الجزائر مطلع القرن العشرين ثنائية في الثّقافة بين الفرنسية والعربية؛ وهي وليدة البيئة والملابسات السّياسية التّي فرضتها الحقبة الاستعمارية، ظهر على إثر هذه الثّنائية الثّقافية انقسام لغوي واضح، بعد أن هيمن الفرنسيون على الإنتاج الفكري وتشكيل الذّهنيات، ونشأ الصّراع الثّقافي بين الاندماجيين والأصوليين على مسألة الهويّة والانتماء والثّقافة(Djeghloul, 1998, pp. 08-09).

تثير مسألة اللّغة أهميّة كبيرة في الاقتناع والاحتفاظ بالموروث الثّقافي، إذ تختلف دراسة أيّة حضارة بغير لغتها، فاللّغة هي التّي تجعل للمعارف والأفكار البشرية قيمًا اجتماعية وتحتفظ بالتّراث للأجيال القادمة، وهو الأمر الذّي ركّزت عليه المنظومة الفرنسية في التّعامل مع أبناء الأهالي، لإدراكها أنّ نشر الفرنسية سيربط الأجسام بالأذهان، وكما قال المفكّر مالك بن نبي في مقاربة موضوعيّة: "لم أكن قد

عرفت بعد أنّها حالة مرضية تعتري غالبية حاملي الثّقافة عندنا؛ فإن كانت ثقافتهم تقليدية فمَثَلُهم الأعلى في الشّرق، وإن كانت ثقافتهم عصرية فمَثَلُهُم في فرنسا"(بن نبي، 2009، ص: 267).

يتّضح من هذه الحالة المرضية التي وصفها ابن نبي أنّها تنمّ عن مركّب نقص وشعور بالضّعف أمام الثّقافة الشّرقية من جهة، والثّقافة الغربية من جهة أخرى، الأمر الذّي جعل من يعاني من هذا المرض الثّقافي والفكري والأدبي في تبعية دائمة لغيره، لا يعتمد على نفسه لتغيير حياته وتطويرها.

كانت مطالب النّخبة اللّيبرالية واضحةً منذ البداية، وهي التقرّب من فرنسا وتحقيق فكرة الاندماج والتجنّس من خلال مناصبهم في الإدارة والمجالس المختلفة، وكانت اللّغة العربية والإسلام بالنّسبة لهذا التيّار تعني التأخّر وعدم الرّقي، كما تعني الظّلامية بالنّسبة للمتطرّفين منهم الذّين فضّلوا التجنّس على حساب الأحوال الشّخصية الإسلاميّة(مريوش، 2013، ص: 261).

ولم تُشكّل اللّغة العربية مشكلًا هوياتيًّا للإدماجيين المعتدلين، على الرّغم من الانبهار الحضاري لهم باللّغة الفرنسية، فذلك لم يكن يعني إقصاء اللّغة العربية في الجزائر أو منع تدريسها لأبناء الأهالي، ولم تخلُ برامج فيدرالية النوّاب المنتخبين المسلمين (1927-1936) من مطلب احترام اللّغة العربية، حتّى أنّ نجم شمال افريقيا اعترف للإدماجيين بدورهم في المطالبة بالتّعليم باللّغة العربية، فالتّنوير بالنّسبة للبعض من الاندماجيين هو العودة إلى مصادر الإسلام وأداته المتميّزة وهي تدريس اللّغة العربية الفصحى، وبالنّسبة للبعض الآخر هو أولوية العقلانية

الأوربية التّي يجب استيعابها وفهمها عن طريق تعليم اللّغة الفرنسية(Djeghloul, 1998, p. 14).

وحتّى سنة 1936م، لم يتغيّر برنامج فيدرالية المنتخبين في تركيزها على المسائل السياسية والثّقافية، بل كانت لها مطالب جديدة كالزّيادة في عدد المدارس وفصل الدّين عن الدّولة، وهي نتيجة دروس حوادث قسنطينة عام 1934م وتأثير جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ حيث أنّ إثارة هذه المطالب يعود إلى الطّموح السّياسي لأعضاء الفيدرالية الذّي يتطلّب الاقتراب من المجتمع وكسب أصوات الأهالي(مناصرية، 1988، ص: 16).

وازداد حرص الفيدرالية على مطلب احترام اللّغة العربية في المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936م، وحتّى الاتّحاد الشّعبي الذّي أسّسه فرحات عبّاس وأعضاء فيدرالية النواب بغية الانتقال من حالة الوساطة التي كانت عليها الفيدرالية بين الأهالي والإدارة الفرنسية إلى حالة التمثيل كضرورة تحقيق فكرة الإدماج مجسّدا طموحات الفئات الشعبية، ففي إطار كسب تمثيل هذه الأخيرة صرّح فرحات عبّاس بشأن العربية بالقول: "إنّ النّصر يتطلّب قوّة تكتّل في الأسواق والمقاهي وحتّى الأكواخ الحقيرة قادرة أن تتحوّل إلى معاقل، فنحن نريد أن تحافظ الجزائر على مظهر محترم على لغتها وأخلاقها وكذا تقاليدها" (Ageron, 1975, p. 175).

ومن الوثائق الوطنية التّي تضمّنت مواقفًا واضحةً تجاه اللّغة العربية بيان 10 فيفري 1943م، الذّي اشتركت فيه غالبية اتّجاهات الحركة الوطنية، ففيه ورد مطلب "الاعتراف باللّغة العربية لغة رسميّة على قدم المساواة مع اللّغة الفرنسية" وألحق به مطلب "حريّة تعليم اللّغة العربية"، ولم تكن هناك مناداة بترسيمها في البيان؛ إمّا لعلاقة ذلك

بالتوجّه السياسي لاتّجاهات الحركة الوطنية وأولوياتها، أو لأنّ هذه الاتّجاهات قد فصلت في قضيّة اللّغة ولم يعد لها داعٍ لتكرارها(الهلالي، 2017، ص: 51).

ويبدو أنّ التطوّر الإيجابي الذّي عرفه فرحات عبّاس عشية اندلاع الحرب العالمية الثّانية جعل حزبه الجديد "الاتّحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" المتأسّس عقب مرسوم إعادة بناء الحركة الوطنية في مارس 1946م يلتحق بالرّكب الوطني في خطوطه العريضة، ومن خلال مطالب الحزب فهناك دعوة من فرحات عبّاس بضرورة إعادة الاعتبار للّغة العربية كلغة وطنيّة رسميّة وإلزامية تدريسها للجزائريين (Kaddache, 1980, p. 990): "التّعليم الإجباري والمجاني لجميع أطفال الجزائر، والنّضال من أجل ترقية اللّغة العربية باعتبارها اللّغة الوطنية والرّسمية"(سعدالله، 1993، ص: 12).

ودافع فرحات عبّاس عن العلماء من التّهم الموجّهة إليهم من الانتساب إلى الوهابية والقومية العربية، مبيّنا أنّ تعليم العربية والإسلام يُمكّن من التفتّح، وهو ما كان على فرنسا أن تقوم به في نظره بدل من حرمانها للأهالي وتركهم للجهل والأميّة(بوعبدالله، 2006، ص: 75)، إذ تشير الكتابات أنّ فرحات عبّاس تحدّث إلى وزير داخلية فرنسا "رينيه" عند زيارته لمدينة سطيف عام 1935م، وذكر له مجهودات جمعية العلماء في دفاعها عن اللّغة العربية وعن الدّين الإسلامي ضدّ الطرقيّة وضدّ الإدارة الاستعمارية التّي تخلّت عن واجباتها في تعليم الجماهير (بوعبدالله، 2006، ص: 75).

ومن الواضح أنّ العديد من زعماء التيّارات السّياسية والمناضلين ذوي التوجّهات الفكرية المختلفة لم يُعرف عنهم محاربتهم للّغة العربية أو الدّين الإسلامي، ولو أنّهم خاطبوا غيرهم باللّغة الفرنسية لوضعية هم

ورثوها عن المدرسة الفرنسية، فنحن نجد أن فرحات عبّاس خريج المدرسة الفرنسية والذّي أتقن الفرنسية أحسن من الفرنسيين أنفسهم، لم يُعرف عنه أنّه حارب العربية ودُعاتها أو تنكّر لها مثلما فعل البعض(مريوش، 2013، ص: 268).

وهناك الكثير ممّا يوحي إلى التطوّر الإيجابي الذّي عرفه فرحات عبّاس تجاه اللّغة العربية، فرغم أنّه لم يسبق له أن درس بالمدارس القرآنية، إلّا أنّ عباس ساند جمعية العلماء في محنتها سنة 1933م، كما أنّه أصدر جريدة بعد الحرب العالمية الثّانية باللّغة العربية هي "المساواة"، وهي لسان حال حزبه "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري"، حملت هذه الجريدة الكثير من الدّلالات العربية والمعاني، وتصدّرت صفحتها الأولى بعض من الآيات القرآنية من سورة القصص(المساواة، 1948، ص: 1).

واقترح حزب الاتحاد الدّيمقراطي في برنامجه الذّي قدّمه للإدارة الفرنسية في 09 أوت 1946م حول مشروع دستور الجمهورية الجزائرية، أن تكون اللّغة العربية لغةً رسميّةً إلى جانب الفرنسية، وأن يكون التّعليم إجباريًّا باللّغتين لجميع الأطوار للذّكور والإناث(عباس، د.ت، ص: 123)، فكان من بين الاعترافات الإيجابيّة ما جاء في المادة 57 من الدّستور من إجباريّة تعليم اللّغة العربية للجزائريين ورفع صفة اللّغة الأجنبيّة عن العربيّة، وكلّ ما يسري على اللّغة الفرنسيّة يسري على العربيّة، إضافة إلى تنظيم التّعليم العربي في جميع المستويات(مريوش، 2013، ص: 268)، وكان هذا الاعتراف الذّي جاء في إطار الإصلاح نقلةً نوعيّةً في الحياة السياسية الجزائرية بعد أن اتّجهت التّيارات الوطنيّة نحو التّلاقي والوحدة.

3- التّعليم في برامج وصحافة الاتّجاه الاندماجي:

احتلّ مطلب أحقيّة التّعليم وإجباريته في التّجنيس حيّزا معتبرا في مطالب التيّار الاندماجي، فنجد جريدة الوفاق (*L'entente*) قد ركّزت على التّعليم المهني للأطفال الجزائريين بتوفير معلّمين مسلمين لتسهيل تلقّي المعلومات، وعلّقت الجريدة آمالًا عريضةً على هذا المشروع لتحقيق التحوّل الفكري والمادّي للمجتمع الجزائري(الهلالي، 2017، ص: 80).

وانصبّ تركيز فرحات عبّاس في التّعليم المهني الذّي تناولته "الوفاق" على الفلاح، باعتبار تخصّصه أساس الحرف المهنية المرتبطة بالأرض، وكان يدعو إلى بناء مدارس مهنيّة متخصّصة لتخريج عدد كبير من الجزائريين في مهن متعدّدة كالفلاحة(Abbas, 1980, p. 141) والصّيد وغيرها، بغية إنهاء الاحتكار الأوربي لهذه المهن (Abbas, 1981, p. 43)، وفي هذا الإطار خاطب فرحات عبّاس الفرنسيين بأن تمنح المدرسة الفرنسيّة فرص التّعليم المهني للجزائريين كي يستعيدوا كرامتهم بقوله: "أعينينا من أجل أن نستعيد كرامتنا، أو استعيدي مدارسك"(Abbas, 1981, p. 127).

ويبدو البرنامج الواضح للتّعليم في أدبيات "البيانيين من خلال مشروعٍ ثانٍ للدّستور الجزائري، قدّمه أعضاء من حزب الاتحاد الديمقراطي في 21 مارس 1947م، أي بعد مرور سنة من المشروع الأوّل، أكّدوا فيه على التّعليم المزدوج للجزائريين باللّغتين العربية والفرنسية، فقد جاء في مادّته التّاسعة من الفصل الثّاني ما يلي: "اللّغة العربية واللّغة الفرنسية هما لغتا الجمهورية الجزائرية، وتعليم اللّغتين إجباري في الأطوار كافّة، تعمل الجمهورية الجزائرية على تيسيرهما لجميع الجزائريين من الجنسين، وإن مؤسّسات التّعليم العام الموجودة اليوم في الجزائر لا يمكن أن تكون محلّ إلغاء، ويمكن للحكومة الفرنسية

إذا عنّ لها ذلك أن تزيد عدد هذه المدارس على أن تتحمّل ميزانية الميتروبوبل تكاليفها"(المساواة، 1947، ص: 3).

وحول وضعية التّعليم في المدارس الحكومية، كانت هناك تدخّلات من ممثّلي الحزب في المجلس الجزائري، منها تدخّلات النّائب بن خليل عبد السّلام (1899-1964) ممثل الحزب عن ولاية باتنة (La Dépeche de Constantine, 1948, p. 03) سنة 1948م، والتّي تطرّق فيها للنّقص الفادح في عدد المدارس التّي تستقطب التّلاميذ، وإلى الأقسام الدّراسية المهدّدة بالانهيار، وطالب باسم الحزب بإعادة النّظر في شؤون التّلاميذ وإعادة توطينهم في أقسام ومدارس تليق بهم، حتّى يتمكّنوا من إدراك ما فاتهم من الدّروس، وإنقاذ الكثير من الأطفال الجزائريين من حياة الشّارع التّي كانوا يعيشونها، وإيجاد الحلول للأقسام المغلقة(Journal Officiel de l'Algérie, 1949, p. 06).

وبالنّسبة للاكتظاظ في المدارس، رأى بن خليل أنّه من الضّروري وضع تناوب في الدّراسة على جميع المدارس الجزائرية، حسب الجنس والعمر بين التّلاميذ الذّكور والإناث، ويكون هذا التّناوب موزّعا على جدول زمني خاص حتّى يتمكّن كل تلميذ من معرفة الوقت الذّي يلج فيه المدرسة تفاديا للاكتظاظ، وبهذا التّناوب يمكن احتواء جميع التّلاميذ دون التّسبّب في توقيفهم عن الدّراسة أو نقلهم إلى مدارس أخرى تكون بعيدة عنهم، ممّا يسبّب لهم الإحباط أو التّسرب (Journal Officiel de l'Algérie, 1949, p. 06).

كما تناول الحزب في برنامجه قضيّة الخدمات المتراجعة في المطاعم المدرسيّة، حيث قدّمت مجموعة الحزب بقيادة بن خليل اقتراحاتها حول ضرورة إصلاح المطاعم وتوسيعها، مع مراعاة العدد

المتزايد للتّلاميذ الذّي وصل إلى 88 تلميذا في كلّ فصل خلال الموسم الدّراسي 1949/1948؛ ففي بداية ذلك الموسم كانت بعض المطاعم في الجزائر تقدّم ما بين 100 إلى 200 وجبة خلال اليوم الواحد، لكنّ هذا العدد تراجع ليصل إلى 60 وجبة في اليوم، رغم أنّ الوجبات لم تكن تُقدّم مجّانا للتّلاميذ، بل كانوا يدفعون مقابلها مبالغا ماليّة محدّدة بداية كلّ شهر تقابل استفادتهم من الوجبات (Journal Officiel de l'Algérie, 1949, p. 06).

ووقف نوّاب الحزب بالمجلس على موضوع الأدوات واللّوازم المدرسية التّي كانت من أهمّ الصّعوبات التّي تقف في وجه التّلاميذ لتحصيلها في بداية كل موسم، حيث كانت المنحة المخصّصة لذلك غير كافية (300 فرنك لكلّ تلميذ في السّنة)، وليس لدى التّلاميذ الفقراء الإمكانية لتغطية كلّ اللّوازم المدرسية التّي يشترطها المعلّمون، لذلك طالب نوّاب الحزب بمراعاة الفروقات الاجتماعية بين التّلاميذ وعدم وضعهم في كفّة واحدة، والرّفع من المنحة بالاعتماد على الوضع المادّي لكلّ تلميذ(Journal Officiel de l'Algérie, 1949, pp. 06-07). وفي هذا الإطار كذلك، اقترحوا تقديم التّلاميذ لكتبهم المدرسيّة في نهاية كلّ موسم دراسي وإيداعها لدى إدارة المدرسة، حتّى تُمنح لمن بعدهم من المحتاجين في المواسم الموالية(Journal Officiel de l'Algérie, 1949, p. 07)، وهو إجراء يعفي الأسر الفقيرة من متاعب شراء الكتب في كلّ موسم دراسي.

وأكّد فرحات عبّاس على تعليم المرأة واعتبره من الأولويات لأنّه - على حدّ تعبيره- يؤثّر على تربيتها للأولاد ويحافظ على توازنها في المجتمع(Abbas, 1981, p. 139)، وهو نفس الطّرح الذّي نادى به باستمرار أصحاب مجلّة "صوت المستضعفين" (*La Voix des humbles*) منذ

تأسيسها، فقد أكّدوا على خطورة دور المرأة إن هي ظلّت حبيسة الجهل والخرافات وتلخصه لنا عبارة: "من مصلحتنا أن نعلّمها؛ فذلك يجعلها تتقاسم الأفكار مع زوجها وأولادها، ولا شكّ أنّ التّاريخ يذكر نماذجا لنساء غيّرن مجرى الأحداث"(دويدة، 2010، ص: 205).

4- المشروع الثّقافي الحداثي في بعض كتابات الاندماجيين:

لم تتوقّف بعض أقلام النّخبة الاندماجيّة عن التّعبير في مختلف القضايا الثّقافية، ويمكن أن نستشفّ ملامح المشروع الثّقافي لدى الاندماجيين في هذه الدّراسة من خلال كتاباتهم أيّا كان نوعها، سواء كانت سياسية أو فكرية أو غيرها، من خلال بعض الكتابات التّي يمكن اعتبارها نماذجًا تعكس نظرتهم للمشروع الثّقافي في فترة ما بعد الأربعينات.

4-1- رواية "بولنوار الشّاب الجزائري" لرابح زناتي *(Bou Al Anouar Le jeune Algérien)*:

يعدّ رابح زناتي (1877-1952) أحد أبرز أفراد النّخبة الجزائرية المفرنسة الأكثر تطرّفا واقتناعا بالمهمّة الحضارية لفرنسا في الجزائر، وذلك بالنّظر لأفكاره وطروحاته المدافعة عن مشروع الإدماج، والتّي كرّس لها حياته على مدى قرابة نصف قرن(دويدة، 2016، ص ص: 119-120)، وهو الأمر الذّي حاول إظهاره في مؤلّفاته: "المشكل الجزائري كما يراه أهلي" 1928م (*Le problème Algérien vu par indigène*)، أو روايته "بولنوار الشّاب الجزائري" 1945م (*Bou Al Anouar Le jeune algérien*).

صدرت له هذه الرّواية الأخيرة سنة 1945م بعد نهاية الحرب العالمية الثّانية، وشاركه في كتابتها ابنه المحامي المدعو "آكلي"، وهي في شكل خطاب ثقافي أكثر منها رواية أدبية، اتّخذت شكل قصّة مأخوذة

من السّيرة الذّاتية للكاتب الذّي يرفض في جوهر الرّواية الانضباط العائلي التّقليدي داخل المجتمع المحافظ، وفيها يصطدم البطل بولنوار بانغلاق المجتمع الذّي أنكر عليه بلوغ الآفاق التّي أتاحتها المدرسة الفرنسية(يحياوي، 2010، ص: 556-557).

تُصوّر الرّواية النّضال الثّقافي من أجل الفرنسة، وتكشف صورة الرّغبة في الإدماج وتأثيراته وإيجابيات المجتمع الفرنسي، حتّى أنّ البطل في الرّواية سرعان ما اندمج مع هويّة الفرنسيين، وتعكس الرّواية كذلك صورةً سلبيّةً عن أصل الجزائريين بوصفهم بالجهل والتخلّف، ورغبة النّخبة المنسلخة عن أصولها التّي تقف على نفس الخط مع زناتي في تجاوز الثّقافة العربية في المجتمع الجزائري والتمسّك بثقافة الآخر(الهلالي، 2017، ص: 73).

يبدو من شخصية زناتي وحدّته في طرح أفكاره في الرّواية، أنّها تنمّ عن شخصية لم تعرف التحفّظ أو الاعتدال في الكتابة، فقد كانت يحذوه الطّموح في تحقّق مسعى الاندماج، وآمن بتحصيل الأهالي المسلمين لحقّهم في المواطنة ورؤية الجزائر فرنسية، فلم ير في الجزائر غير النّخبة المفرنسة المتحمّسة للاندماج لتولّي مهمّة تحقيق مشروعه الثّقافي وأنكر البقيّة العريضة من النّخبة، وهو ما يجعلنا نستنتج أنّ الرّواية هي انعكاس لشخصيّة زناتي، حلّلت موقفه من مجتمعه الأم ونظرته للمسألة الثّقافية.

4-2- كتاب "الشّاب الجزائري" لفرحات عبّاس (*De la colonie vers la Provence: Le Jeune Algérien*):

جمع فرحات عبّاس مجموعة مقالاته التّي كتبها في الفترة ما بين 1922 و1930م في كتاب أطلق عليه "الشّاب الجزائري" (*Le Jeune*

Algérien) صدر سنة 1930م بمناسبة الذّكرى المئوية للاحتلال، يتضمّن الكتاب مجموعة من التّحليلات السّياسية للأوضاع التّي كانت قائمة حينئذ، كما يشتمل أيضا على اعترافات تتعلّق بالهويّة والانتماء.

ظهر فرحات عبّاس في مقالاته بالشّاب الجزائري في صورة المثقّف المسلم، الذّي يرغب في الاندماج دون أن ينسلخ لمجتمعه أو ينكر أصالته، فكان أهمّ ما ميّز مطالبه هو الاندماج المشروط، من خلال استحالة فصل الشّخصية الإسلاميّة عن الجزائريين، ودحض كل ما من شأنه أن يسيء للإسلام، وهو يقول عن الإسلام: "إنّه دين الأسرة التّي هي خليّة النّظام الاجتماعي ... إنّ الإسلام هو الدّيمقراطية التّابعة للثّقافة"(عباس، 2007، ص: 84).

بنى فرحات عبّاس مرجعيته الفكرية والثّقافية في مجموعة من المبادئ نشرها ضمن سلسلة مقالات، ثمّ أعاد جمعها في كتابه "الشّاب الجزائري"، تتلخّص أهمّها فيما يلي(بوعبدالله، 2006، ص: 66):

- احترام الإسلام واللّغة العربية والمدنية الإسلامية.
- تطوير المجتمع الجزائري ليصبح عصريّا بإمكانه منافسة الأوربيين.
- اقتفاء آثار أوروبا دون أن يتخلّى المجتمع الجزائري عن حضارته.

وهو يلخّص تلك المرجعيّة بالقول: "قيل عنّي موالٍ لفرنسا، والعبارة التّي تصدق بالنّسبة لحالتي، هو أنّ ثقافتي هي الفرنسية ... هذا التّعليم الفرنسي هل يمكن أن يؤدّي إلى محو شخصيتنا واقتطاعنا من ماضينا؟ ... لم أعتقد ذلك في يوم من الأيّام"(عباس، د.ت، ص: 11)، وفي مقال آخر يقول: "وبالفعل، إنّ الجزائر أرض عربية، ومن تسوّل له نفسه إنكار هذا؟، إنّها أرض إسلامية أصيلة، وهذه أيضا حقيقة لا غبار عليها،

ورغم عزم الامبريالية الفرنسية في الماضي والحاضر، ورغم قوّة سلاحها، فإنّ هذه الحقيقة التّاريخية تظلّ صحيحة بشكل صارم، إنّها حقيقة دائمة ماثلة راسخة في الأفكار"(عباس، د.ت، ص: 14).

ويذكر في كتابه الموسوعة ليل الاستعمار (*La nuit Coloniale*) الذّي يروي فيه سيرة حياته الاجتماعية والسّياسية تجربة جيله ومبرّرات تمسّكه بفرنسا في قوله: "إنّ ما يفسّر إصرار جيلي وإصرار الأجيال السّابقة لنا على الالتجاء إلى فرنسا الجمهورية التحرّرية، رجاء أن تساعدنا في القضاء على فرنسا الظّالمة، اعتقدنا أنّنا نحتاج فقط لإنارة الأولى لتضع حدّا للمآسي التّي خلّفتها فرنسا المحتلّة"(عباس، د.ت، ص: 131)، ولعلّ دفاع فرحات عبّاس عن الثّقافة الفرنسية وتأكيده على تشبّعه بها جعل البعض يخلط بين تعلّقه بتلك الثّقافة وتبعيّته للسّياسة الفرنسية، رغم أنّهما أمران مختلفان(بوعبدالله، 2006، ص: 47).

كما نادى عبّاس باتّباع قيم الإسلام وفي مقدّمتها سياسة العدالة والمساواة التّي أطلق عليها "الأسلمة" (*L'islamisation*): "إنّ عملية الأسلمة هذه هي التّي ينبغي أن تفرض نفسها بطرقها كنموذج على فرنسا، إذا كانت فرنسا ترغب حقّا في القيام بعمل دائم ويكون له معنى"(عباس، 2007، ص: 78).

ودعا إلى مجتمع متفتّح على المدنية الفرنسية ومتمسّك بأصالته، من خلال السّعي إلى تكوين مجتمع جديد تكون فيه المزاوجة بين الإسلام والمواطنة الفرنسية، والسّير بالجزائريين نحو الحداثة، بالخروج من دائرة الأهلي المحتقر من الأوربيين إلى دائرة القدرة على التفوّق والتحضّر.

كما اعتبر أنّ المشكلة الثّقافية عنصرًا هامًّا في تحديث المجتمع الجزائري، وقدّم مجموعة من المبادئ في إطار مشروع هذا التّحديث ونشرها في الشّاب الجزائري(الهلالي، 2017، ص: 82):

- احترام كل الأديان، وتطبيق كلّ القوانين التّي صدرت في مبدأ فصل الدين الإسلامي عن الدّولة.
- تُدار المنشآت الدّينية تحت مراقبة الدّولة من قبل الطّائفة الإسلامية التّي يكون لها فيها حقّ الاستعمال الحر.
- إلغاء كل إجراءات القوانين الاستثنائية التّي تضرب اللّغة العربية والتّي تشبّهها باللّغات الأجنبية، واللّغة العربية يجب أن تُعتبر لغة رسميّة على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية.
- إطلاق حريّة التّعليم الدّيني، وإلغاء القوانين التّي تمنع أيّ نوع من المدارس الحرّة الإسلامية دون تصريح من عامل العمالة، والتزام الدّولة للحياد في تأويل العقيدة الإسلاميّة.

على الرّغم من هذه المساعي العملية والجديّة التّي قام بها فرحات عبّاس حيال الخطوات التّحديثية للمجتمع، إلّا أنّه ظلّ وكأنّه لم يفعل شيئا، بسبب تحرّكات المعمّرين الأوربيين الذّين وقفوا عقبة أمام كل محاولات الإصلاح تجاه الجزائريين لتبقى الجزائر فرنسيّة(الهلالي، 2017، ص: 82).

لقد حاولت نخبة التيّار الاندماجي تصوّر المشروع الثّقافي في الجزائر من خلال بعض المؤلّفات الخاصّة لهم، فحاولوا البحث في أسباب المشكل الثّقافي وتقديم الاقتراحات لتحقيق الحداثة في الثّقافة الجزائرية التّي يتمنونها، غير أنّ وجهات نظرهم كانت متباينة، واختلفوا في تصوّراتهم العامّة للمشكل الثّقافي، وهو ما تعكسه كتاباتهم؛ فنجد

البعض تبنّى الثّقافة الفرنسية بما حملت وانسلخ عن مجتمعه هويّة ولغة ودينا، بينما حاول فرحات عبّاس تقديم مشروعه الثّقافي في إطار استيعاب ثقافة الآخر وخصوصيات المسلمين الجزائريين.

5- الدّين الإسلامي في برامج ومطالب نخبة الاتّحاد الدّيمقراطي للبيان الجزائري:

جمع فرحات عبّاس بين ثقافتين: الثّقافة الغربية المكتسبة، والتّي أثّرت فيه من خلال أفكار الثّورة الفرنسية، وبين الثّقافة التّقليدية التّي ترسّخت لديه منذ الطّفولة من خلال احتكاكه بالفلّاحين، لذلك كانت أهمّ القضايا التّي شغلته في مشواره السّياسي هي علاقة الأهالي بالإسلام والعربية(بوعبدالله، 2006، ص: 67).

عمل فرحات عباس على المزاوجة بين الإسلام والمواطنة الفرنسية؛ ففرنسا بالنّسبة له هي الوطن الفكري، والإسلام هو الوطن الرّوحي، وقد مثّل هذا الانتماء المزدوج حسب بعض الباحثين صورة للمعاناة النّفسية العميقة للنّخبة المثقّفة بالفرنسية(Benjamin Stora, 1995, p. 17).

في كتابه الشّاب الجزائري يُعبّر فرحات عبّاس عن مرجعيته الفكرية وانجذابه للإسلام، بأنّه مع أغلب أصدقائه لا يملكون سوى قدرا محدودًا من الثّقافة العربية، وبأنّ جيلهم ليس مدينًا للثّقافة العربية في شيء، وإنّما الفكر الفرنسي هو أساس حياتهم المعنوية، وأنّه وبالرّغم من ذلك فالإسلام هو عقيدتهم الخالصة ووطنهم الرّوحي الذّي يعطي للحياة معنى(Abbas, 1981, p. 90).

ويتطرّق لأهميّة الدّين الإسلامي بالقول: "أصبح الإسلام في الجزائر في عقر داره، ومن العبث محاربته لأنّه قادر على الصّمود في وجه كلّ تخريب أو تهديم"(عباس، د.ت، ص: 144)، ويساند حركة التّجديد

التّي عرفها العالم الإسلامي، ويلتقي مع جمعية العلماء في ذلك، لكنّه لا يخرج عن الفكرة المطروحة لجماعة النّخبة وهي نهضة الإسلام بواسطة فرنسا، كما يرى أنّه لا يوجد أيّ أمر يمنع الجزائري المسلم من أن يكون فرنسيا(Abbas, 1981, p. 152)، وقد كتب في مقاله "الاستعمار والأحقاد الدينية": "ظلّ الإسلام هو عقيدتنا، هو الإيمان الذّي يعطي لحياتنا مغزى، هو وطننا الرّوحي، إنّ قانون الأحوال الشّخصية هو بلدنا الحقيقي"(بوعبدالله، 2006، ص: 47).

كما أثارت قضايا الإسلام والعربية بعض نوّاب الكتلة الوطنية الذّين مثّلوا الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في المجلس الجزائري، واتّخذوا من هذا الأخير منبرا يطرحون من خلاله قضايا الجزائريين، ومن أبرز هؤلاء النوّاب نذكر النّائب عبد السّلام بن خليل، الذّي ركّز بالأساس على قضايا اللّغة العربية وفصل الدّين عن الدّولة.

ففي مجال الدّين الإسلامي طرح ممثّل الحزب عدّة استفسارات على الحاكم العام للجزائر داخل المجلس، من ضمنها ما طرحه سنة 1949م حول ضرورة الاستجابة لطروحات النوّاب ورغبة الشّعب الجزائري في الفصل بين الدّين والدّولة، وألّا يبقى الدّين تحت تصرّف الفرنسيين وحكمهم، لكنّ الحاكم العام للجزائر رفض اقتراح النائب ووصف العلماء المسلمين بالمتشدّدين والمتعصّبين (Journal Officiel de l'Algérie, 1949, p. 05).

وحول نفس الموضوع، كان هناك اقتراح قُدّم عام 1950م من مجموعة الحزب ممثّلة في كلّ من النوّاب: فرحات عباس، بن خليل، بن قارة، قادة بوطارن، وأحمد فرانسيس، الذّين طالبوا بضرورة تطبيق قرار فصل الدين عن الدّولة واحترام العدالة الإسلاميّة، معتبرين أنّ الدّين

الإسلامي موضوع شاغل لعقول المسلمين الجزائريين، حيث أنّ لهم عاطفة قويّة تشدّهم نحو دينهم، وذكروا أن الحكومة الفرنسية خانت العهود والمواثيق، وخالفت وعودها التّي سُطّرت في اتّفاقية 05 جويلية 1830م والتّي التزمت فيها باحترام الدّين الإسلامي وكلّ الشّعائر التّي تمتّ له بصلة (Journal Officiel de l'Algérie, les débats de l'Assemblée Algérienne 1948-1956 , Débats, session-extraord, 1950, p. 33).

ووجّه ممثّلو النّخبة اللّيبرالية مطالبًا دينيّةً ثقافيةً في شكل نداءٍ للمجلس الجزائري عام 1954م، جاء فيه: "اليوم نحن أقوياء بحركتنا ... لذا لا بدّ من دعم مرشّحينا حتّى نتمكّن من فصل الدّين الإسلامي عن الدّولة وترسيم اللّغة العربية وتحقيق عدالة جبائية والدّفاع عن الحقوق الاجتماعية"(La République Algérienne, 1954, p. 13).

يمكن القول أنّ النّخبة اللّيبرالية راهنت على المعركة الثّقافية في برامجها، وساعدها في ذلك تراكم الخبرات والاحتكاك الدّائم بأجهزة النّظام الاستعماري، إلّا أنّ مأزق الوسطية وتواضع مبادراتهم السّياسية أفقدهم الأخذ بزمام الأمور، رغم أنّ دورهم كناقل وظيفي للثّقافة السّائدة استمرّ حتّى بعد الاستقلال، أين انتهى المجتمع الجزائري إلى اقتباس علامات كثيرة من هذه الثّقافة.

خاتمة:

لقد عكست برامج الاتّجاه الاندماجي للحركة الوطنية الجزائرية ومطالبه حول القضايا الثّقافية عمق الشّرخ الذّي أحدثه الاستعمار الفرنسي في الثّقافة الوطنية بمفهومها الواسع، وبقي الوضع فيها بالنّسبة لهذا التيّار متأرجحًا بين بعض القضايا الثّابتة والأفكار والمواقف المتذبذبة والمتناقضة.

ساهم الانتماء الاجتماعي للاندماجيين في توجّههم الثّقافي، فكان منهم الاندماجيون المتحمّسون الذّين انسلخوا عن المجتمع عرقًا ودينًا ولغةً، ورفضوها تمامًا كمكوّنات للشّخصية الجزائرية، أمّا المعتدلون المعروفون بحزب فرحات عبّاس فرغم أنّهم بقوا متمسّكين بمظهر الحياة الفرنسية، إلّا أنّهم أبدوا بعض الاهتمام بالقضايا الثّقافية؛ فلم ينكروا الدّين الإسلامي، واهتمّوا بالصّحافة، وآمنوا بأنّ نهضة الجزائر سوف تولد من المدرسة لذلك طالبوا بتعليم الجزائريين في المدارس الفرنسية، ومن خلال بعض مؤلّفاتهم الخاصّة حاولوا تصوّر أسباب المشكل الثّقافي وقدّموا مشروعاتهم واقتراحاتهم لتحقيق الحداثة المنشودة في الثّقافة الجزائرية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- بوعبد الله، عبد الحفيظ، (2006). **فرحات عباس بين الإدماج والوطنية 1919-1962**، باتنة: قسم التاريخ، جامعة باتنة1.

2- جريدة **المساواة**، ع 06، 10 جوان 1948.

3- جريدة **المساواة**، ع 76، 09 ماي 1947.

4- جوليان، شارل أندري، (1976). **إفريقيا الشمالية تسير**، ترجمة: سليم المنجي وآخرون، تونس: الدار التونسية للنشر.

5- حمادي، عبد الله، (د.ت). **الحركة الطلّابية في الجزائر**، الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد.

6- دويدة، نفيسة، (2010). **المسألة الثقافية في الجزائر من منظور التيار اللّيبرالي للحركة الوطنية 1927-1945**، الجزائر: قسم التاريخ/المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة.

7- دويدة، نفيسة، "رابح زناتي ومشروع الاندماج: المرجعيات والأسس 1877-1952"، **مجلة أفكار وآفاق**، ع 07، أفريل 2016، ص ص 119-120.

8- سعد الله، أبو القاسم، "اللغة العربية في مواثيق الحركة الوطنية"، **مجلة الكلمة**، ع 04، جانفي 1993، ص 12.

9- فرحات عباس، (2007). **الشاب الجزائري: الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم**، ترجمة: أحمد منور، الجزائر: وزارة الثقافة.

10- فرحات عباس، (د.ت). **حرب الجزائر وثورتها: ليل الاستعمار**، ترجمة: بوبكر رحال، المغرب: مطبعة فضالة.

11- مريوش، أحمد، "مكانة اللغة العربية في برامج الحركة السياسية الجزائرية ما بين 1926-1954"، **مجلة البحوث والدراسات**، جامعة الوادي، ع 16، 2013، ص 261.

12- مناصرية، يوسف، (1988). **الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919-1939**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

13- بن نبي، مالك، (2009). **مذكّرات شاهد للقرن**، دمشق: دار الفكر.

14- الهلالي، سلوى، (2017). **المسألة الثقافية في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1954**، الجزائر: قسم التاريخ/جامعة الجزائر02

15- يحياوي، مسعودة مرابط، (2010). **المجتمع المسلم والجماعات الأوربية في جزائر القرن العشرين: حقائق وإيديولوجيات وأساطير ونمطيات**، ترجمة: محمد المعراجي، الجزائر: دار هومة.

16-Abbas, F. (1980). ***Autopsie d'une guerre: l'Aurore***. Paris: Edition Garnier.

17-Abbas, F. (1981). ***De la colonie vers la provence: Le jeune Algérien***. Paris: Edition Garnier.

18-Ageron, C. R. (1975, juillet). *Ferhat Abbas et l'évolution politique de l'Algérie musulmane pendant la deuxième guerre mondiale*. ***Revue d'histoire maghrébine***(04), p. 125.

19-Benjamin Stora, Z. D. (1995). ***Ferhat Abbas: Une autre Algérie***. Alger: Edition Casbah.

20-Claude Collot, H. j. (1981). ***Le Mouvement National Algérien***. Alger: Office des Publications Universitaires.

21-Djeghloul, A. (1998). ***Lettrés, intellectuels et militants en Algérie 1880-1950***. Alger: Office des publications universitaires.

22-Journal Officiel de l'Algérie. (1949, janvier 18). **Les Débats de l'Assemblée Algérienne 1948-1956**. *Journal Officiel de l'Algérie*, 06.

23-Journal Officiel de l'Algérie. (1950, février). **les débats de l'Assemblée Algérienne 1948-1956 , Débats, session-extraord**. *Journal Officiel de l'Algérie*.
24-Kaddache, M. (1980). ***Histoire du Nationalisme Algérien T2***. Alger: Société Nationale d'Edition et de Diffusion.
25-La Dépeche deConstantine. (1948, Avril 04). ***La Dépeche de Constantine***(13), 03.
26-La République Algérienne. (1954, janvier 22). ***La République Algérienne***(15), 13.